

أسلوب التفكير والاختلاف

(ديكارت - سبينوزا - كانط)

ناجي العونلي

I مقاربات أولية :

حينما نسعى إلى البحث في أسلوب التفكير عند فيلسوف ما فذاك السعي سرعان ما يجابه صعوبتين أوليتين : أولها تكاد تكون « ذاتية وفنية ». إن بحثا في أسلوب التفكير يتجاوز الشروط الموضوعية التي تتحرك داخلها عند « قراءتنا » الفلاسفة أيا كانوا. ليس همنا حينما نعرض لفلسفة ما أن نترصد القرار الفلسفي الذي أحدثها ولا كثافة الأسئلة التي تجعلها ملزمة فلسفياً، بل همنا الساذج أن نتحرك على سطح إجاباتها ونتائجها. تعاملنا اليومي مع الفلسفة يبقى تعاملًا مغتربا وسالياً إذ نحن نزهد في الذهاب تجاهها وننتظر ببرود أن تأتي هي صوبنا : كوننا قراء كسالى وسيئين، ذاك هو فقرنا الفكري الذي يجعلنا عاجزين أولياً عن الإضطلاع ببحث في أسلوب التفكير والاختلاف عند كل من ديكارت وسبينوزا وكانط.

ثاني الصعوبتين فلسفية أو تكاد. - ثمة آراء سائدة حول هذه الفلسفات الثلاث : ثلاثتهم (ديكارت وسبينوزا وكانط) التقوا فلسفياً في موضع ما. سبينوزا كثيراً ما غالينا في ديكارتيته، خاصة وأن عرض جماع المبادئ الديكارتية في كتاب مستقل : « مبادئ فلسفة ديكارت » (1)، كانط جمعناه مراراً عدة مع ديكارت خاصة في مستوى الذات المفكرة وفعاليتها الفلسفية عند كليهما. وأخيراً ثلاثتهم أجمعوا على الإقرار بمحدودية - La finitude - العقل.

الصعوبة قد تبرز فيما تحدثه هذه المواضيع المشتركة بين ثلاثتهم من تشويش قد يستحيل عاثقا أمام تقصي اقتدار أساليب التفكير عندهم على إنتاج الاختلاف. مثلاً هل يقدر كانط - وهو متأخر الثلاثة أن يحكم على الأسلوب التحليلي ويختلف عنه مطلقاً فيؤكد العمق الميتافيزيقي للفعل التحليلي (2) ؟ ثم هل يعني اشتراك الثلاثة في موضع ما غياب الاختلاف بين هذه الأساليب في التفكير الفلسفي ؟ أي أسلوب منها يمكن له أن يضطلع لوحده بالاختلاف التام ؟

أما الصعوبة الأساسية فهي التالية : على أي معنى نتكلم عند ديكارت وسبينوزا وكانط عن « أسلوب في التفكير » ؟ كيف يتسنى للإشكال الأسلوبي أن يصاغ في الفلسفة ؟

لعل الجرج الذي يقتضيه شأن أسلوب التفكير في الفلسفة يعود إلى أنه إضافة إلى كون أسلوب الفلاسفة يبقى « إبهاما

فلسفياً - Un charabia philosophique « (3). أو كتابة أنقاض وشواش، فإن البحث فيه يفترض تحركاً في مستوى «اللا-أسلوب» ! هذه الصعوبات تلزمنا بمحاولة تقصي الإشكال الأسلوبي بصورة عامة، ثم رصد دواعي التباسه في الفلسفة.

1. الأسلوبية واللغة : تعنى الأسلوبية بتحليل الظواهر الصوتية والتركيبية والمعنوية والتصويرية التي تتحرك داخل النص. وتنجز بذلك ممارسات نصية تعيد توزيع نظام اللغة داخل النص. ليست الأسلوبية تأسيساً للمعنى ولا تدبيراً للدلالة أي أنها ليست عملية تأويلية وإنما هي تدخل في مستوى الإنشاء اللغوي للنص الشعري أو النثري. إنها كما يسمها ر.أ. جاكبسون «هندسة لغوية» للنصوص تكشف عن مقومات الإبلاغ فيها. قوام الأسلوبية الظاهرة البلاغية إذا ما فهمنا هذه الظاهرة على أنها حدث لغوي ناجم عن «أزمة العلامة».

يعني ذلك أساساً أن الأسلوب ينتج عن استثمار فريد ومتميز للعنصر اللغوي : الواقعة الأسلوبية لا تتماشى مع العنصر اللغوي. فالأسلوب كما يحده ج. كوهن (4) «هو كل ما ليس شائعاً ولا عادياً ولا مطابقاً للمعيار العام المؤلف . الأسلوب انزياح - un écart أي خرق لقواعد اللغة وللبادئها. إنه انزياح بالنسبة إلى معيار، أي أنه خطأ. وبذلك يحمل الأسلوب قيمة جمالية».

يكون الأسلوب إذن كتابة فردية خاصة يمكن تشخيصها وقياسها فلا يمثل استهلاك كل واحد منا للعنصر اللغوي أسلوباً إذ الأسلوب نادر وندرته تعود إلى قدرته على إحداث أزمة علامائية داخل اللغة.

نرى إذن أن الصياغة الأدبية للإشكال الأسلوبي تتحرك أساساً في أفق اللغة وما قد يتأتى لهذا التحرك من تشخيص تصويري وصوتي وتركيبية، يبقى تحديد الأسلوب مرتبطاً به. هل يتحرك الأسلوب في الفلسفة داخل الأفق نفسه أي هل أن الأسلوب واقعة لغوية في الفلسفة ؟

2. الأسلوب في الفلسفة - دواعي الالتباس : لا يبدو الأسلوب في الفلسفة مرتبطاً بالعنصر اللغوي، ولا يمثل الأسلوب فيها حدثاً لغوياً، إذ غالباً ما أظهرت الفلسفة قدرة متنامية على تصريف العنصر اللغوي وإخضاعه إلى الحركات الامتناهية للفكر. لنتذكر مثلاً خانات الاستنزاف الفلسفي التي خضع لها العنصر اللغوي مع هايدقار وهوسرل. لا ينزع الفيلسوف، في أغلب الأحيان، إلى أن ينجز انزياحات في اللغة ولا إلى أن يكتب بطريقة استثنائية وغير معهودة. على العكس من ذلك ينذر الفيلسوف للغة فقراً : إن وضعه اللغوي شبيه بوضع الرسام أمام اللون، فاللون مادة يمكن تحقيقها وفق حركات لا تحصى للشكل. كذلك اللغة عند الفيلسوف جملة امكانات يستنفذها الفكر.

لا يبدو الأسلوب في الفلسفة إذن قضية لغة كما أن اللون لا يمثل قضية الرسام ! ولكننا مع ذلك نلجأ عادة إلى حد الأسلوب الشكل - La forme . ولعل أول التباس يصادف صياغة فلسفية

للأسلوبية يقطن زوج الشكل والمضمون.
أ- الشكل والمضمون : إن ربط إشكال الأسلوب بمسألة الشكل والمضمون يجعل الأسلوب مسألة تعبيرية صرفا والأسلوبية مبحثا في شروط إمكان أنماط التعبير - L'expression -
الأسلوب حدث يتم وفقه مسار تكويني يعمل داخله الشكل كما المضمون ذلك يعني أن الأسلوب أشتغال بالكيفية التي يدغم بها الفردي - Individuel - داخل البنية وإذا الأسلوب واقعة بين الإنبناء Structuration - والإنفراد Individuation.

ذاك ما قد يكون المعنى الذي تعطيه فلسفة الأسلوب، عند ج.ج. قرنيجي، لمقولة «الأسلوب» وارتباطها بمقولتي «الشكل» و«المضمون» (5) هنا يستحيل الأسلوب فعلا - acte - حاصلًا بين وضع الأشياء والبنية بصورة أدق، لا يتعلّق الأسلوب في الفلسفة بالوقائع - faits - كما هو شأن العلم، وإنما ينحصر في سياسة الدلالات : ليس الأسلوب في الفلسفة - حسب ج.ج. قرنيجي - مسألة ماهيات وإنما هو معين علائق - noeud - غير محسومة وذات حدود غائمة - Unbeschlussig - يبدو أن صياغة الإشكال الأسلوبي في الفلسفة على نحو مسألة الشكل و المضمون ينتهي وفق أطروحات الفلسفة التحليلية إلى استعادة المرجع اللغوي فتصير القضايا الفلسفية - عكس القضايا العلمية - غير محددة وغائمة، إذ يغيب من عندها سند المرجع - Le référent -

سنحاول أن نحفظ إذن بالفرق بين الشكل والاسلوب لأن الجمع فيهما لا يكون إلا على نحو فلسفة في الأسلوب هيما الأول شروط إمكان التعبير واحترام البعد التركيبي والدلالي، للقضية اللغوية.

ولكن يبقى هذا التمييز بين الأسلوب و الشكل غير كاف إذ قد نعتبر الأسلوب منهجا في الفكر.

ب - المنهج و الأسلوب : من اليسير ان نعدّ أسلوب التفكير في الفلسفة منهجا. ولعل هذا اليسر في المطابقة المتسّعة بين الأسلوب والمنهج يمثل مصدر الإلتباس القائم في صياغة اسلوبية فلسفية - تبتعد من إشكال التعبير. سهل أن نوّكد اعتبار الأسلوب التحليلي عند ديكارت في نهاية الأمر منهجا رسم «مقال الطريفة» قواعده الأربع. وبالقدر نفسه من البساطة قد نقدر «الأسلوب المتعالي» على وجه المنهج خاصة وأن كانط يقرّ بكتاب «نقد العقل المحض» متنا في المنهج كيف يمكن لنا أن نميّز بين الأسلوب والمنهج ؟ وماهي الآثار الفلسفية الممكنة لذلك التمييز ؟.

ليست قادرا على أن أجيب بدقّة عن هذين السؤالين، ولكن يبدو أن الأسلوب لا ينحصر الى حدود قواعد ومسارات يساس بها الفكر أبتغاء وجه الحقيقة ! ليس الأسلوب منهجا للفكر الفلسفي بل إنه شرط إمكان المنهج في الفلسفة. لذلك لا نقبل دائما أن يكون الشك عند ديكارت منهجا فننتحدث عن مجرد «شك منهجي»، أو تكون الجدلية الفينو مينولوجية عند هيكل هيكل منهجيا فنقول فيه «منهاجا جدليا».

بين الأسلوب والمنهج ثمة فاصل يجعل الفكر الفلسفي غير خاضع تماماً لإكراهات وإلزامات أداتية لأن قرار الفكر في الفلسفة لا يحدث بمعية أدوات الفكر وصناعة قواعده وأفانيه. إن حدث الفكر في الفلسفة بطرح - برأيي - مقتضيات المنهج وأدواته ليتنزل في مستوى الأسلوب. لقد أبان هيثل فقر مقولة «المنهج» وتعارضها الميتافيزيقي مع دينامية الفكر الحميمية. يشكل الأسلوب استجابة فلسفية لقلق الفكر إزاء جوهره في حين يبقى المنهج حبيس تمثّل أداتيّ وبارد ومغترّب للفكر كما لاستحالاته.

سبينوزا، أيضاً، عارض في «رسالة اصلاح الذهن» أن يستبق المنهج المعرفة وإنتاجها، إذ المنهج يرتفع إذا غابت الفكرة. لنفترض إذن أن الأسلوب هو ما يجعل المنهج في الفكر الفلسفي ممكناً! إن الخلط بين الأسلوب والمنهج يحصل عن ضرب من «الإغراء». (6) الشكل يغري القوة - La force - فتنحيس لذلك لعبة الدلالة والفكرة. والأخطر أن الاعيب المنهج وإغراءاته تمت قوة الاختلاف وتوزع الأفكار توزيعاً قد يحنطها. ليس المنهج في الفلسفة ما يمكن به تدبير الاختلاف وإنما الأسلوب ما يؤسس الاختلاف في الفكر ويضمن له دوار الجوهر وذوهوله. فإذا أسلوب التفكير لا شكل - «Forme - ولا منهج - methode - - أين يتحدّد؟ هل لزام علينا أن نحده سالباً (انه ليس كذا ... وليس كذا...)?

ج- الصعيد والمفهوم: تتيح لنا محاولة ج. ديلوز الأخيرة (7) إمكان تحديد لأسلوبية فلسفية على ضوء مفهومين مركزيين تنحتهما هذه المحاولة أعني مفهومي «الصعيد - Le plan - والمفهوم - Le concept». يتشكل الصعيد في الفلسفة كأنفق تجري عليه أحداث مفهومية خالصة (8) وتكون المفاهيم حركات لا متناهية يقوم بها الفكر «الأشخاص المفهومية» داخل - ذلك الأفق. المفاهيم تغطي - Paver - بحركيتها الصعيد الفلسفي وتصوغ حدثاً في الفكر لا جوهرًا ولا شيئاً.

ليست حركة المفهوم كحدث فكريّ منهاجاً (9)، وإنما تخفي في لانهائيتها ظل الشخص المفهومي. يمكن أن يكون الأسلوب هنا فعل الشخص المفهومي الذي يسطر وفقه مستوى فلسفياً يحيا عليه الفكر: يتعلّق الأسلوب - بصورة أوضح - بجملة تلك الحركات اللامتناهية واللامتكافئة التي تحدث عن إنشاء المفاهيم وخلقها إن عملية تكثيف صعيد الفكر الفلسفي ومسارات عمرانه المفاهيمي تقتضي، في البدء كما في المنتهى فعلاً أسلوبياً.

ولكن يعسر على أيّ منا أن يرسم معالم هذا الفعل الأسلوبيّ في الفلسفة لأنّ الأسلوب في الفلسفة كما كنهه يستدعي «ذوقاً فلسفياً». هذا الذوق الذي يسمح برصد حركة المفهوم وبكشف فعل خلقه وتكثيفه ببقى، فلسفياً، «ملكة إشكالية» (10).

أن ندرك أسلوب تفكير داخل فلسفة ما فذاك يعني أن نتقص بآناة حركات المفاهيم داخلها وكيفيات تحيزها داخل الصعيد،

الخاصّ بالفكر على شاكلة أحداث تملأ الفكر وتخرج به من الشواش..

ليس أسلوب التفكير في الفلسفة قضية لغة أو شكل أو منهج وإنما هو حركة مفهومية، حياة المفهوم وانزياحاته وتكتّفات، قدرة المفهوم على أن يكون حدثاً في الفلسفة وخصوصاً بالفلسفة من جهة أنه يضمن الاختلاف داخل الفلسفة والاختلاف بين الفلسفة والعلم والفن. في الفلسفة يمثل الأسلوب تلك الحركة التي يقوم بها الشخص المفهومي، بين صعيد الفكر وبين إنشاء المفاهيم. في العلم يمثل الأسلوب عمل البنية واحتواءها للفردية، في الفن يمثل الأسلوب لعبة الشكل وسكر اللغة.

علينا الآن أن نمسح هذه المقاربات الأولية بصدد فلسفات ثلاث، الديكارتية والسبينوزية والكانطية.

II- الأسلوب التحليلي والأسلوب المايثي والأسلوب المتعالي

لا أحد بيننا قد يشكّ في الثراء المفهومي الذي يسم هذه الفلسفات ثلاثتها دون استثناء فالكوجيطو والوجود والشك ... عند ديكارت والجوهر والصفة والضرب ... عند سبينوزا والذات المتعالية والمفهوم والفكرة ... عند كانط تكون جميعها أحداثاً مفهومية نشأت وفق حركات شديدة السرعة قام بها الفكر. ولكن هذه السمة - الثراء المفهومي - بالتحديد تجعل محاولة تعقب أساليب هذه الفلسفات أمراً عسيراً. إن حركة المفاهيم عندها تكون على درجة من الكثافة والاستماتة حتى ليعسر على كل منا أن يتتبعها - إنها ممانعة الفكر، بدل الخوف، يستحيل خفاء !.

الديكارتية تنتج أسلوباً افتتاحياً حيث يعني الفكر بذاته. ففي حين كان الفيلسوف يتحرك في الساحة نابتاً بين رموز الظن، عازماً على مفارقتها في الخارج، يضجر الأسلوب التحليلي من المحاورات والمساجلات وينفلق داخل «حجرة» - Le poêle - قصد الإنثناء إلى الفكر: السكون التام والوحدة الناعمة يقيمان فضاء الأسلوب التحليلي.

ذاك الفضاء الذي يحدث فيه الفكر في تجانسه وتماهية التأمين. وليس للفكر أن يحدث ما لم يضطلع أسلوب التفكير هنا بطرد الأحلام والمغالطات الاستدلالية والحواس والجنون حتى إن أكثر ما يتهدد أسلوب التفكير عند ديكارت الجنون - بين لنا فوكو ودريدا سطوة العقل وسلطان الفكر القابع وراء ذلك. لعل الجنون يقف في الدرجة الموازية للشواش - Le chaos - حيث لا فكر ولا أسلوب ! أما الخطأ فلا يعد كونه ترسباً من ترسبات الشواش في الفكر.

إن الإمتلاء في الدّاخل ناجم عن حجم الفراغات التي يحدثه أسلوب التفكير الديكارتية في الخارج هناك أسئلة لا تغري الأسلوب التحليلي لأنها لا تمثل قوام تجانس الفكر ولأن تجانس الفكر لا يحصل إلا عن جهد الفكر ذاته وعنائه.

يعمل هذا الأسلوب التحليلي وفق استراتيجيّة الإنتباه

والتأمل والقيس - على مشاكلة نظام للأفكار محكوم من الداخل
أختلافياً بتنامي سرعات الشك وكثافته وبأنحسار أحجام اليقين
حد أنقلابه حدساً مطلقاً - الكوجيطو - بذلك يتمكّن الأسلوب
التحليلي من مليء الفكر وتوزيعه فأباليته على نحو سلسلة من
الإختلافات تقيمها تدرجات التعقّد «فكرة النفس - فكرة الجسم -
فكرة الرب...».

يصبح مع ديكارت أسلوب التفكير التحليل والقيس المحكمين
فيعوّض المراتبية التناسبية - فوكو (11) كشف عن مضاعفات
هذا التعويض كما ألح على قدراته إنشاء الإختلاف بدل التناسب.
إمتلاء الفكر وحركته لا يتسنيان إلا بإنتاج فراغات يسيجها
الأسلوب التحليلي بمقولة عدم الفهم - Incompréhensibilité - بإحلال
الإختلاف مكان التناسب. ولكن هذين الشرطين محكومان -
بدورهما - بصعيد التحليل - Le plan d'analyse - الذي يسطره
أسلوب التفكير عند ديكارت وبالأفكار التي تتحرك فوقه وفق
نظام حازم يتحاشى التردد ويقاوم الفوضى. يسطر الفكر أفقا
عقلانياً تستوي عليه الأفكار من حيث الفحوى وتختلف من حيث
درجاتها وضوحاً وتميزاً، أما قرار التحرك على هذا الأفق فأمره
يعود الى نظر الذات - Le regard du sujet - في ثباته الثقيل : على
هذا المعنى تفهم مقولة «الشيء» عند ديكارت (أناشيء يفكر، شيء
ممتد، شيء ناقص ...) فهذه مقولة تحفظ سرعات الفكر من التداخل
والتشويش فتؤمن له استواء الأفق حيث لا مراتبية، لا قيمة.
تسطر السبينوزية أفقا آخر للفلسفة يتحرك فيه الفكر، إنه
مستوى المحايثة، حيث تحمل الفكرة قدرة خاصة على الحركة
الخلاقة. ذلك أن الفكرة - حسب أسلوب المحايثة - تملك سببية
ذاتية تنتج بمحضها آثارها وأفاعيلها. أسلوب المحايثة يتحرك -
على ما يبدو - في مستوى نظام سببي محكم أو بالأحرى في
مستوى تكوينية - La genèse - الفكر. ليست للفكر فراغات - وهذا
فرق خارجي أساسي بين الأسلوب التحليلي وأسلوب المحايثة، ففي
حين يقر الأسلوب التحليلي بجهد وفعالية قطاعية لفكرة، يجعل
أسلوب المحايثة الفكرة في نشاط دائم ومطلق قلماعية الفكرة
داخل الأسلوب التحليلي هو ما يجعلها تحتاج الى ض من كي تكون
صحيحة، أما تكوينية الفكرة الخاصة في أسلوب المحايثة يجعل
الحق كامناً فيها ومحادثاً لها : الحقيقة تحدث في النكرة عن فعل
ذهني محايث لها ومتطابق مع شيء خارجي.

إن أسلوب المحايثة هذا القائم على تكوينية الفكر هو ما
يجعل الهندسة التكوينية منهجا ممكنا للفلسفة لا الكس يبدو أن
السبينوزية تقدّم لنا فرصة يمكن لنا وفقها أن نقرّ بالأسلوب في
الفلسفة شرطاً إمكان المنهج. لا يعني هذا أن المنهج بلحق الأسلوب
ويتبعه وإنما يعني أن المنهج مطالب بأن يعكس أسلوب الفكر
التكويني أي أن يرسم الحركات التي ينتج داخها الفكر في
مستوى المحايثة من ديكارت الى سبينوزا تتغير مستويات الفكر
الفلسفي بشكل مريب، من الفكرة اللوحة تنتقل الى الفكرة العلة
والمنتجة، ومن شواش الخطأ تنتقل الى شواش الجهل، والإغتراب.

إن حركة الفكر المحايثة والمطلقة - إذ لا ثغرة ولا فراغ فيها - تنفتح على عنصر لا فلسفي تؤكد اختلافها معه ومقاومتها له، أعني عنصر الاغتراب بمشاوقاته المتكثرة التي تمثل حسب العبارة الصائبة لـج. ديلاز الظن المريب والأصلي Die Urdoxa - يضطلع أسلوب المحايثة تباعاً بالمشابرة في مستوى المحايثة على تخليص الفكر من هذا العنصر المريب (الجهل - الوهم - الاعتقاد...) إنه أسلوب يثابر ويقاوم الإغترابات كلها مثابرة ومقاومة محايثتين ! أسلوب المحايثة يجعل الفكر في تشاكل رهيب مع الجوهر في إطلاقيته ولانهائية المنشئتين حيث تنحل الكثافة المفهومية لتستحيل البدء في كل فلسفة، ذلك البدء الفلسفي إطلاقاً في صلحه ضد التاريخ كما ضد المساجلة وعرضيتها وفي استعادة للمحايثة أزال للفكر.

بذلك يكاد يقف أسلوب المحايثة على طرف النقيض من الأسلوب المتعالي ذلك أن هذا الأسلوب الأخير ينزل حركة الفكر في مستوى الشرط - La condition - بالمعنى القانوني للكلمة : ما الذي يسمح للعقل أن يتحرك وينتج معرفة دون أن يتخطى الحدود التي يرسمها الشرط ؟

يبدو الأسلوب المتعالي على حركة توليف مشروطة تمثل الماقبلية سرعتها القصوى والوهم سكونها. بين الوهم والشرط الماقبلي يعنى الأسلوب المتعالي بإقناع العقل حتى يقيم عقدا قانونياً يمجبه يرضخ إلى مقتضيات الماقبلي ويطرح عند ميولاته الطبيعية في إنشاء الوهم.

لا يثابر الأسلوب المتعالي على استئصال الوهم وإقصائه نهائياً من حركات الفكر المشرعة وإنما ينتمي بإعطاء الوهم طبيعة شرطية ليشرع فكرتي الله وخلود النفس - الأسلوب المتعالي على ما يبدو قادر على أن يختلف نسبياً ومؤقتاً، ولكن حركة الفكر تسطح ذلك الاختلاف وتمحوه.

هل يعني ذلك تعذر واستحالة مقاومة الفكر للوهم على مستوى متعال ؟

يخطئ الأسلوب المتعالي حركات محرجة للفكر : حركة الفكر بين عقل سوي بالطبيعية وخالص مطلقاً وبين عقل ميال إلى الوهم ويقتضي نقدا ! حركة الفكر بين العقل النظري والعقل العملي أي بين المعرفة - Wissen - والتفكير - Denken - والاعتقاد - Glauben - ! حركة للفكر تقرر تسييج الوهم وإحكام الخناق عليه وحركة للفكر أخرى تتسرجع الوهم وتشعره بشاكلة ما .

إذا ما صغنا الحرج الكانطي وفق تحليلات ج. ديلاز : هل يكون الأسلوب المتعالي عاجزاً لكونه يتنزل داخل وهم التعالي الذي يثابر على مقاومة أسلوب المحايثة عند سبينوزا ؟

ألا يعني هذا اكتساح الشواش للفكر وعجز حركات هذا الأخير على إنشاء الاختلاف ؟ قد تكون هذه الأسئلة سيئة الطرح ! ولكن ما قد يكون واضحاً هو أن الفلسفة تفقد رهانها ضد الوهم والإغتراب إذا ماهي تحركت على مستوى متعال تحكمه شرطية الماقبلي وقدرته على التوليف.

إن كل قارئ «لنقد العقل المحض» يصاب بالدوار من تذبذب حركة الفكر ومراوحتها بين الإقتدار können - والوجوب - muessen : منذ السطر الأول تقريبا يسبح الأسلوب المتعالي بهذين القطبين : «للعقل البشري، في نوع من معارفه، هذا القدر الخاص : أن يكون مرهقا بأسئلة لا يمكنه ردها، أنها مفروضة عليه بطبيعة العقل نفسه، ولا يمكنه أيضا أن يجيب عنها، لأنها تتخطى كلياً قدرة العقل البشري (12).

هو سرل سيعمد الى تجييد هذه الحركة المتذبذبة على المستوى المتعالي للفلسفة عبر مقومين اساسيين يرجعان المتعالي الى الماحيث، أعني العالم المعيش - Die Lebenswelt - وعلائق الذوات المتعالية Intersubjectivité - بذلك تنجح الفلسفة في تكثيف مستوى الماحيثة وتعبئته حد التخلص من وهم العلمية - «Philosophie als strenge Wissenschaft - der Traum ist ausgetraeumt».

III - مستوى الماحيثة والاختلاف

هل يعني ذلك أن أسلوب الماحيثة يكون وحده قادرا على الإضطلاع بالاختلاف في الفلسفة ؟ مألذي يمنع الأسلوبين الآخرين من الإضطلاع بالاختلاف ؟.

إن التجانس والمطابقة المطلقة الذين يؤنهما مستوى الماحيثة للفكر ولمسارات تكوينه الداخلي يختلفان بشكل مأساسي عن ذلك التجانس القطاعي الذي يحدثه الأسلوب التحليلي حيث يتزامن امتلاء الفكر مع فراغات هامة فلا سرعة مفهومية وإنما سكون وعطالة (الله - الاخلاق - الدين - الجسم وانفس ...) ومع حاجة ماسة الى ضمان خارجي.

ولكن تجانس مستوى الماحيثة كما المطابقة المطلقة فيه ينتجان اختلافا قد يكون على درجة أبلغ من الحدة مع الأسلوب المتعالي، حيث يتهدد سرعة الفكر سكون الوهم وحيث يضطرنا العقل كي نكسبه حساً مدنياً الى أن نشرع للوهم.

الأسلوب «المحيثي» في التفكير الفلسفي يبدو قادرا على أن ينتج اختلافا أصيلا مع الأسلوبين الآخرين، ذلك أنه أسلوب يقاوم، وفق حركات للفكر تكوينية وخاصة، الأوهام كلها الناجمة عن الشواش الماقبل - فلسفي للفكر، أي كل تشاكلات الاغتراب : الأديان التي تخاتلنا، السلطات التي تقمعنا، الأحكام المسبقة التي، ترفع عنا جهد الفكر كالفائية، أوهام الفلسفة نفسها كوهم المتعالي وكوهم الحكم الحر والضميان الإلهي والحقيقة الفطرية ...

يبدو أن الأسلوب الماحيثي، بحجم العقلانية فيه قادر دون الأسلوب التحليلي ودون الأسلوب المتعالي على أن يتحاشى كل تواطىء أو تورط مع التعالوية ولاغتراب حيثما تكون حركة الفكر متجانسة ومتطابقة وتكون المفاهيم وقائع فلسفية أصيلة على مستوى الماحيثة، يكون أسلوب التفكير مضطلق بمهمة إنشاء الاختلاف.

فلأن الجوهر هنا واحد ومتماه مطلقا يرفض الفكر الحادث عن ذلك الجوهر كل مساومة فلسفية مع الاختلاف الدرسي : إذا كان أسلوب التفكير عند سبينوزا يعمل في قلب محابثة الجوهر - إذ

الفكر صفة لهذا - فإن ذلك يعني قبل كل شيء أن الاختلاف لا ينتج كحال عرضية أو كهامش ملقى داخل الجوهر وإنما هذا النحو المحايث للإختلاف مطلق ويعبر، في جزء جزء وإن دق من الوجود على مطابقة الجوهر ومماهااته المطلقة لذاته.

الإختلاف عند سبينوزا يكون اختلافا في ذاته لا في شيء آخر لأن الفكر الذي ينتج هذا النحو من الإختلاف يتلقى سرعته المحايثة من الجوهر وكونا في ذاته وفهما لذاته بذاته.

تعلمنا عقلانية سبينوزا - عكس عقلانية ديكرت ونقدية كانط - أن نقد الإختلاف في الفكر لا انطلاقا من نقص في طبيعة الفكر ولا ابتداء من هومشه اللامفكر فيها وإنما الإختلاف يكون سليل المماهة المطلقة - L'Identité et l'Adéquation absolues.

فإذا كان بوفون Buffon أقر في خطابه الشهير في الأسلوب (13) أن «الأسلوب إنما هو الإنسان ذاته» فإن عقلانية سبينوزا تؤكد أن الأسلوب في الفكر إنما هو الجوهر ذاته.

الهوامش

- (1) Spinoza ; *Principes de la Philosophie de Descartes*. in Oeuvres complètes. La Pléiade . Paris (1) 1959.
- (2) Kant ; *Critique de la raison pure* . P.U.F. Paris 1944. P. 45.
- (3) G. Deleuze & F.44 Guattari, *Qu'est ce que la philosophie.*, Minuit. Paris 1991. P. 7.
- (4) J. Cohen ; *Sturcture du langage poétique.*, Flammarion . Paris 1966. V Introduction.
- (5) G.G. Granger ; *Essai d'une philosophie du style* ., A. Colin. Paris 1968. P.7.
- (6) J. Derrida ; *L'écriture & la différence.*, Seuil. Paris 1967. V " Force & signification". P. 9 (6) à la P. 49.
- (7) Eperons. *Les styles de Nietzsche : Flammarion . Paris.*
- (8) G. Deleuze & F. Guattari ; *op.cit*
- (9) *Ibid* ; p. 39.
- (10) *Ibid* ; P.74 & P. 127.
- (11) M. Foucault ; *Les mots & les choses* , Gallimard. Paris. 1966. pp. 67.68.69.
- (12) إ. كانط. *نقد العقل المحض*، مركز الإنماء القومي . ص 54.
- (13) Buffon ; *Discours à l'Académie Française* . prononcé le 25 août 1753. in. *Pages choisies.* (13) Classiques Larousse Pais. 1934. P. 73.